

الجاحظ وإسهاماته في المنجز اللساني العربي

Al- jahiz and his contributions to the Arabic linguistic achievement

سالم صغير¹¹ جامعة يحيى فارس-المدينة(الجزائر)، seghir.salem@univ-medea.dz

مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية .

تاريخ الاستلام: 2026/ 05 / 30 تاريخ القبول: 2026/ 08 / 22 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

إن الدارس المتمعن في تراث الجاحظ يمتلكه العجب مما حققه هذا العلامة الفذ في حقل الدراسات اللغوية مقارنة بما أرساه علم اللغة الحديث وما خرج من رحمه من علوم كاللسانيات التطبيقية والاجتماعية والنفسية، ورغم غياب سمات البحث المتخصص الرصين في مؤلفات الجاحظ – حيث يتجلى غياب التصنيف والتبويب، مما جعل أفكاره وآراءه مبعثرة لا يحكمها رابط ولا نظام – إلا أنّ الزمن وغزارة المادة المبتوثة في تصانيفه ترفعه بين أقرانه مكانا عليّا، فلا نكاد نجد كاتباً معاصراً للجاحظ ولا لاحقاً له يشبهه أو يدانيه في أسلوبه، وقد شكّل بترائه نسيجاً متفرداً في الثقافة العربية بإجماع محبيه وخصومه معاً، كما أنّ ثقافة عصره الموسوعية تجلّت في تكوينه وتأليفه، فهو بلاغي، ولساني، وأديب، ومفكر، وناقد، وعالم اجتماع خبّر النفس البشرية في أحوالها وتقلباتها، ثمّ إنّه صهر ما تشرّبه في بناء محكم أقامه على منهجية علمية تفرد بها وأسسها على مبدأ التنوع والتفرع داخل الوحدة والانسجام.

كلمات مفتاحية: الجاحظ، إسهاماته، المنجز اللساني العربي.

Abstract:

A discerning scholar who delves into al-Jāhiz's intellectual heritage cannot but be struck by the remarkable achievements of this extraordinary figure in the domain of linguistic inquiry—achievements that, when set beside the foundations of modern linguistics and its derivative fields such as applied, social, and psychological linguistics, attest to his profound insight and intellectual originality.

Despite the absence of the systematic structure and rigorous specialization characteristic of modern scholarly research—manifested in the lack of classification and organization that left his ideas and arguments scattered and unsystematized—the passage of time, together with the abundance of material dispersed throughout his writings, has elevated al-Jāhiz to a preeminent rank among his peers. Indeed, few writers, whether of his time or after him, can be said to equal or even approximate his distinctive style. Through his corpus, al-Jāhiz has woven a unique intellectual fabric within Arabic culture, a distinction acknowledged alike by his admirers and his critics.

A distinction acknowledged alike by both his admirers and his critics within Arab culture. Moreover, the encyclopedic character of his age is vividly reflected in his intellectual formation and authorship; he was at once a rhetorician, a linguist, a man of letters, a thinker, a critic, and a social observer deeply acquainted with the complexities and fluctuations of human nature. He further fused all that he had absorbed into a coherent and well-constructed edifice, founded upon a scientific methodology uniquely his own—one that he established on the principle of diversity and multiplicity within an overarching unity and harmony.

Keywords: Al- jahiz, his contributions, the Arabic linguistic achievement .

*المؤلف المرسل: سالم صغير

فرض التفكير الجاحظي نفسه على الذهن البشري وعلى التاريخ، ولولا الصراع الثقافي بين الأمم والجماعات، والتعصب والولاء العرقي والمذهبي، والوهن والتراجع الريادي لبني جلدته لكان الجاحظ رائدا عالميا في الفكر والتنظير، لأن التراث الذي سطره في زمانه عربي اللغة ولكنه إنساني الروح والمضمون، فها هو في مفهوم البيان - مثلا - ينظر لفكرة الاجتماع البشري، ويحاول في ذلك الجمع بين الوحدة والائتلاف، والتنوع والاختلاف، وهي فكرة لم يكن إدراكها سهلا متاحا في ذلك الزمن ، كون البيان برهانا تترأى فيه العائلة البشرية الموحدة في أصلها الأول كما قال الجاحظ : " ثم لم يرضَ لهم من البيان بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقل، وأظهر ولم يخف، وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والتزجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم؛ في أربعة أشياء : وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تبدل بجنسها الذي وضعت له وصرفت إليه، وهذه الخصال هي : اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد، والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة ووضوح البرهان ، في الأجرام الجامدة والصامته، والساكنة التي لا تنبئن، ولا تحس، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخل يدخل عليها، أو عند ممسك خلّى عنها بعد أن كان تقييدها لها . " (الجاحظ أ.، كتاب الحيوان، 1424هـ - 2003م ، صفحة 36)، وهذه فكرة صريحة تتماهى مع اللسانيات الحديثة التي تدرس اللسان البشري كنظام مشترك بين اللغات جميعا.

نظرية المقامات وقضايا اللسانيات الاجتماعية عند الجاحظ :

تتناول اللسانيات الاجتماعية فاعلية المعطيات الاجتماعية التي تمثل ماء حياة اللغة الذي تحيا فيه وبه ، ومدى تأثر اللغة بها، وفي هذا السياق حُق لنا أن نتساءل : هل انتبه العرب إلى علاقة اللغة بالمجتمع ؟ ، وهل نظروا لها وتحديثوا عن حيثياتها ؟ .

إنّ المتمعن في تراث العرب يلمس تلك العلاقة على مستوى الممارسة والإنجاز ، وإن لم ينظروا لذلك ويدرجوه تحت ما يعرف حديثا بعلم اللغة الاجتماعي ، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : (ليس من ام برام صيام في ام سفر) (الطبراني، دون تاريخ، صفحة 172)، ورجح البعض أنّ الحديث إجابة عن سؤال سائل أثر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيبه بلغته ، يقول ابن حجر : " وهذه لغة لبعض أهل اليمن، يجعلون لام

التعريف ميمًا ، ويحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم خاطب بها هذا الأشعري كذلك لأنها لغته " (العسقلاني، 1416هـ - 1995م ، صفحة 393)، وفي السياق نفسه أورد الإمام البخاري قول علي رضي الله عنه : " حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أُتَجِبُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ . " (البخاري، 1423هـ - 2002م، صفحة 45)، وقد استوعب عليُّ أنّ الرسول لا يُجَارَى ولا يُبَارَى فصاحة وبيانًا ، وأدرك أنّه عليه الصلاة والسلام أعلمهم بمواقع الخطاب، وأرشدهم إلى أوجه الصواب، فقال بعد أن " سَمِعَهُ يَخَاطُبُ وَقَدْ بَنَى نَهْدٍ : يا رسولَ الله نحن بنو أبٍ واحدٍ ، وَرَأَاكَ تُكَلِّمُ وَفُودَ الْعَرَبِ بِمَا لَا نَفْهَمُ أَكْثَرَهُ ، فقال : (أَدْبَى رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي ، وَرُبِّيتُ فِي بَنِي سَعْدِ) " (ابن الأثير، دون تاريخ، صفحة 05)

وهاهو الجاحظ ينظر لهذه الفكرة ، ويؤسس لها في بدايات التنظير اللغوي عند العرب ، ووجب حسبه " إفهام كلّ قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 91) ورأى الحاجات والعلاقات دفعت الجماعات إلى ابداع اللغة، وهذا في قوله : " ولولا حاجة الناس إلى المعاني، وإلى التعاون والتراؤد، لما احتاجوا إلى الأسماء " (الجاحظ أ.، كتاب الحيوان، 1424هـ - 2003م ، صفحة 111) وهو بقوله هذا يؤكد الوظيفة الأصلية للغة، وأنّ الحاجة إلى التواصل والتفاهم فرضت إيجاد أليات لذلك، كما ذكر في سياق اجتماعية اللغة : الأسماء والسمات والعلامات، وأنّ المسميات لا متناهية مقابل محدودية الأسماء، ومن هنا جاز التوسع في اللغة، وذلك في قوله : " وإنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 131) وأكد ذلك حين قال: " على أن المعاني تفضل عن الأسماء ، والحاجات تجوز مقادير السمات، وتفوت ذرع العلامات " (الجاحظ أ.، كتاب الحيوان، 1424هـ - 2003م ، صفحة 111؛ الجاحظ ع.، 1385هـ - 1965م).

وجلى الجاحظ فكرة السلم اللغوي وتبعها بالسلم الاجتماعي والطبقي في قوله : " وكلام الناس في طبقات ، كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 133)، ومع ذلك واءم الجاحظ بين الفئات الشعبية والطبقات الاجتماعية المختلفة التي كان دائم الاتصال والتواصل معها بشهادة أعلام كثر بالغوا في تقريضه، ومنهم ثابت بن قرة الذي قال فيه : " الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلّم له ، والعامّة تحبه . " (الحموي، 1993م، الصفحات 2113-2114)

ولما نظّر المأمون في بعض كتب الجاحظ هاله قدرة الجاحظ على إلباس المعاني ألفاظ السّوق والمملوك معا، والأعجب - حسب المأمون - صهره للغة الخاصة والعامّة فقال : " جامع لاستقصاء المعاني واستيفاء الحقوق بلفظ جزل، ومخرج سهل، سوقيّ ملوكيّ ، خاصيّ عاميّ " (ابن الفقيه، 1302. ، صفحة 195)

وكثرت وصايا الجاحظ للكتّاب في عصره، فالكتابة غدت من أجلّ الصناعات التي ترفع أصحابها إلى المعالي، ومن هنا كان لزاما على الأدباء والكتّاب وجوب مراعاة لوازم صناعتهم، مع مراعاة الأعراف الاجتماعية وإخضاع كتاباتهم من ثمّ للواقع الاجتماعي والتنوع الطبقي وتجسيدها إياه، وفي ذلك قال الجاحظ: " ينبغي للكتّاب أن يكون رقيق حواشي الكلام، عذب ينابيعه، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى. وقال لا تكلم العامة بكلام الخاصة، ولا الخاصة بكلام العامة . " (المرتضى، 1373هـ 1954م)

وفي العملية التواصلية لم يغفل الجاحظ الإشارة لدورة التخاطب بمفهومها الحديث " ومؤداها أنّ كل أثر أو حدث لغوي يتضمن في ثناياه رسالة ومرسل، ومتلقي وشفرة " (سمير، 1421هـ - 2001م ، صفحة 139) حين أعطى للمتکلم الحرية في اختيار اللغة الأنسب لتحقيق الفهم والإفهام إذ يقول : " ومدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 78)، وذكر ما يدل على المرسل والمتلقي في قوله : " والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل ، إلا أنّ المُفهم أفضل من المتفهم ، وكذلك المعلم والمتعلم " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 25) كما عبّر عن العناصر الأخرى بمرادفاتها في معرض حديثه عن الوحي الذي تلقاه سيدنا موسى عليه السلام ورسالة ربه إليه ليبلغها للناس حيث أصبح مُفهما لقومه بلغتهم بعد أن كان متفهما عن ربه بعد أن " سأل الله موسى (عليه السلام) حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته ، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه، والحُبسة التي كانت في بيانه « واخلل عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَقْفَهُوا قَوْلِي » " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 20) لأنها عائق يحول بينه وبين غايته وهي البيان على الوجه الأتم الأكمل، وفرعون جاحد معاند ، وحاقد مكائد ، يترصد كلّ سبب ويستريح لكل عيب، وقد خبرنا الله بقوله : « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » وقال موسى عليه السلام : « وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » وقال « وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » " رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة ، والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم ، والنفوس إليه أسرع " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 21).

ولم يهمل الجاحظ المخاطب في العملية التواصلية بل يحث المتكلم على وجوب مراعاة منزلته العلمية وقدرته الاستيعابية ، وأحواله الاجتماعية والنفسية لأنّ " مدار الأمر على إفهام كلّ قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 91) ، ورغم التداخل الظاهر بين اجتماعية اللغة وقضايا المقام في تفكير الجاحظ إلا أنّ ما خصّ به المقام وامتداداته لافت ، ويدل على ذلك كثرة المصطلحات الدالة على فكرة المطابقة في وظائف الكلام ، وأساسها قوله : " لكلّ مقام مقال ، ولكلّ صناعة شكل " (الجاحظ ع.، 1385هـ - 1965م) وفي الجدول التالي بعض من أكثر مصطلحات المقام تواترا في تفكير الجاحظ :

الجاحظ وإسهاماته في المنجز اللساني العربي .

المصطلح	متنه	مصدره
الحال	موافقة الحال	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 127
المقال	ما يجب لكل مقام من المقال	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 127
الموضع	قلقة في مكانها نافرة من موضعها	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 127
القران	إنه يقول لو كان لقوله قران	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 71
الموقع والمماثلة والموافقة	إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض ... وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا ...	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 70
المواضع	البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 87
الموقف	ما أعددت لهذا الموقف ؟	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 106
المقامات	في أول تكلفه لتلك المقامات	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 106
مواقع	ما بصرك مواقع رشذك	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 127
المقدار	ما فضل عن مقدار الاحتمال	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 127
فصل الخطاب	كنت قد أوتيت فصل الخطاب	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 127
الأقدار	حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 127
المشكلة	سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع	البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 133
تناسب الألفاظ مع الأغراض	لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال .	الحيوان ، بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، ج 3 ص 39

وإذا كانت الإشارة تعني عن العبارة والتلميح يغني عن التصريح أحيانا ألفينا الجاحظ يلج على المتكلم بوجوب مراعاة قرائن الأحوال والرموز والإشارات والحركات من متلقي خطابه ، وقد استدل في ذلك بمُطَرَف بن عَبْدِ اللَّهِ الذي يقول : " لا تطعم طعامك من لا يشتهيهِ . يقول : لا تُقبَل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه. وقال عبدُالله بن مسعود : حَدَّثَ النَّاسَ مَا حَدَّجُواكَ بِأَسْمَاعِهِمْ وَلَحْظُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ، فَإِذَا رَأَيْتَ مِنْهُمْ فَتْرَةً فَأَمْسِكْ ... وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك . " (الجاحظ ع.، 1385هـ - 1965م، صفحة 99)

فالكلام له غاية ولنشاط السامع نهاية ؛ ولذا وجب على الكاتب أو المتكلم " أن لا يؤدي به حرصه على تبليغ خطابه إلى تجاهل حال المستمع أو القارئ ويتناسى نشاطه المحدود . ولذلك يتعين عليه أن يضحى أحيانا بتسلسل أفكاره مثلاً في سبيل انتباه السامع واستعداده لتقبل الخطاب ! وهذا هو المبرر الوحيد لطريقة الاستطراد المعروفة ، وقد استدلل الجاحظ لها في أكثر من موضع " (محمد الصغير، 1983م، صفحة 390)

فقد كان يرى أنّ الجدّ في غير موضعه ممقوت ، وأنّ الهزل في موضعه محبّب إلى النفوس محمود ولهذا " ذهب إلى أنّ الجدّ الدائم متعب مملّ وأنّ في الهزل راحة وفي المزاح استجماماً " (شارل، 1406هـ - 1985م، صفحة 389)

والجاحظ حريص على هذا الجانب النفسي ، يراعيه في مؤلفاته ويوصي به ، ومن ذلك قوله في استنشاط القارئ ببعض الهزل : " وإن كنّا قد أمللناك بالجدّ وبالاحتجاجات الصحيحة والمرّوجة ؛ لتكثّر الخواطر وتشجّد العقول - فإنّا سننشّطك ببعض البطالات وبذكر العلل الطريفة ، والاحتجاجات الغريبة ؛ فربّ شعريبلُّ بفقرط غباوة صاحبه [من السرور والضحك والاستطراف] ، ما لا يبلغه [حشد] أحري النوار ، وأجمع المعاني . " (الجاحظ ع.، 1385هـ - 1965م، صفحة 5) وقوله : " وسنذكر من هذا الشكل عللاً ، ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججاً . فإن كنت ممن يستعمل الملالّة ، وتعجل إليه السأمة ، كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك وجَماماً لقوّتك ... وإن كنت صاحب علمٍ وجدٍ وكنت ممرّناً موقّحاً ، وكنت إلف تفكيرٍ وتنقييرٍ ودراسةٍ كُتب ، وحلف تبئّن ، وكان ذلك عادةً لك لم يضرّك مكانه من الكتاب ، وتخطّيه إلى ما هو أولى بك . " (الجاحظ ع.، 1385هـ - 1965م، صفحة 6)

وفي فلسفته في ضرورة الجمع بين الجدّ والهزل ، وحرصه على ضرورة التنوع في التأليف يقول : " قد عزمْتُ - والله الموفق - آتي أوشّح هذا الكتابَ وأفصّل أبوابه ، بنوادرٍ من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث ؛ ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل ؛ فإنّي رأيتُ الأسماع تملأ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها . " (الجاحظ ع.، 1385هـ - 1965م، صفحة 7)

لقد كان الجاحظ على دراية واسعة بطباع الناس وأهوائهم ؛ ومن ثمّ سلك طريق المزاجية بين الجدّ والهزل حتى لا ينصرف قراؤه عن كتبه ، فاستطاع بمسلكه الذي انتحاه أن يستميل أذواقهم ويستحضر قلوبهم، وأن ينسبهم تطويله في الأسلوب بالدعابة والملح والنوادر ، وقد أوصى أهل صناعته بالابتعاد عن الجدّ الصّرف لأنّ " للصبر غايةً وللاحتمال نهاية . ولا بأس بأن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل . وعلى أنّ الكتاب إذا كثّر هزله سخّف، كما أنّه إذا كثّر جدّه ثقل . ولا بدّ للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشّط القارئ ، وينفي النعاس عن المستمع . " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 153)

والجاحظ يطمئن من رأى رأيه وسار على نهجه بما قاله ابن المقفع واستحسنه هو فيقول : " إذا أعطيت كلّ مقام حقّه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، وأما الجاهل فلسنت منه وليس منك " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 110).

بعض عيوب الكلام وقضايا الصوتيات في تفكير الجاحظ :

فرضت عبقرية الجاحظ الأدبية واللسانية تراثه في حقول العربية جميعا، فلا نكاد نخوض ميدانا في علوم العربية إلا ونجد له فيه بصمة وحضورا، وليس غلوا القول في لسانيات الجاحظ أنها لا تختلف عن الدراسات الحديثة، فالموضوعات اللغوية التي نجدها في كتابات الجاحظ تتماهى مع كثير من أسس اللسانيات الحديثة : فهو يشير إلى اللسانيات التقابلية حين يذكر الفروق الصوتية لبعض اللغات المشهورة في زمنه، ومن ذلك قوله : " ولكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين واستعمال الجرامقة للعين . قال الأصمعي : ليس للروم ضاد ولا للفرس ثاء ولا للسرمان دال " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 69)، وذكر الجاحظ في مجال أصوات اللغة العربية بعضا من القيود والجوازات التي يفرضها نظامها الصوتي من الاختلاف والائتلاف في قوله : " فأما افتراق الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 72)

وفي مجال الصوتيات أيضا أشار الجاحظ في حديثه عن عيوب اللسان إلى ما يعتري الأصوات حين تركيبها من تغيير في صفاتها يؤدي إلى تباين المعاني ، وهو ما أثبتته اللغويون المحدثون في دراستهم للوحدات الصوتية (الفونيمات) ، ويتضح هذا في حديث الجاحظ عن اللثغة وأنواعها حين قال: " واللثغة بالراء تكون بالغين والذال والياء، والغين أقلها قبحا ، وأوجدتها في كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 28)، وقال في ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة " هي أربعة أحرف : القاف والسين واللام والراء. فأما التي هي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط، لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مخرج من المخارج، والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها. وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 44)، وفي السياق نفسه يقول : " وأما اللثغة الخامسة التي تعرض لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العدوي الشاعر ، فليس إلى تصويرها سبيل . وكذلك اللثغة التي تعرض في الشين كنحو ما كان لمحمد بن الحجاج كاتب داود بن محمد كاتب أم جعفر ، فإن تلك أيضا ليس لها صورة في الخط ترى بالعين ، وإنما يصورها اللسان وتتأدى إلى السمع . " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 45) .

واللثغة وفقا لما أورده الجاحظ قسمان :

القسم الأول : وهو اللثغة التي تعرض للقاف والسين واللام والراء، وفيها تتحول الوحدات الصوتية إلى غيرها، وينجر عن ذلك تغيير في معاني المفردات التي تحويها، وذكر الجاحظ في ذلك : " اللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء ، كقوله لأبي يكسوم : أبي يكتوم، وكما يقولون بثرة إذا أرادوا بسرة ، وبائم الله إذا أرادوا بسم الله . والثانية اللثغة التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف طاء ، فإذا أراد أن يقول : قُلت له، قال : طُلت له . وأراد أن يقول : قال لي، قال : طال لي .

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله : اعتلتت اعتيتت . وبديل جمل جي . وآخرون يجعلون اللام كافا كالذي عرض لعمر أخي هلال ، فإنه كان إذا أراد أن يقول : ما العلة في هذا ؟ قال : ما الكعة في هذا ؟ (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 44)

ويطنب الجاحظ ويفصل في ما يعرض للرأء فيقول : " فأما اللثغة التي تقع في الرأء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام ، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف : فمنهم من إذا أراد أن يقول : عمرو ، قال : عي ، فيجعل الرأء ياء . ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمغ ، فيجعل الرأء غينا . ومنهم من إذا أراد أن ، أن يقول : عمرو ، قال : عمد . فيجعل الرأء ذالا . " (الجاحظ أ.، 1411هـ - 1991م، صفحة 45)

وفي هذا القسم يتحتم الاحتكام إلى السياق في توجيه دلالة الخطاب، لأن النظام الصوتي للألثغ ناقص عن أصوات العربية، فهو يبدل صوتاً أو أكثر مكان صوت أو أكثر بصفة دائمة، ومثال ذلك ما يحدث لمن ينطق السين ثاء - وكلاهما أساسي في أصوات العربية - فإذا أبدلها تشعب المعنى وحصل اللبس : فكلمة سار تختلط بثار، كما تختلط سناء بثناء، وسمّـن بثمّـن، ومن هنا إذا قال الألثغ : ساريحمل عصاه على عاتقه والسورة في قلبه يتمم بها، حار المتلقي ولم يدر ما يقصد الألثغ أي : مشى يحمل عصاه على عاتقه ويتمم بسورة من القرآن يحملها في قلبه، أم ثاريحمل عصاه على عاتقه والثورة في قلبه يتمم بها غاضبا متوعدا.

وكذلك من يجعل الرأء غينا وياء وذالا وظاء فيقول : غبط اليأس فأصبح ذائعا ، ومن هنا يهيم السامع في محاولة فك مهم القول ، ومن التخرجات المتعددة : ربط الرأس فأصبح رائعا .

ويحكي الجاحظ أنه كان ضحية غلام ألثغ حين صار " إلى منزل بعض إخوانه فاستأذن عليه، فخرج إليه غلام أعجبي ، فقال : من أنت ؟ قال : الجاحظ . فدخل الغلام إلى صاحب الدار فقال : الجاحظ على الباب . وسمعها الجاحظ . فقال صاحب الدار للغلام : اخرج فانظر من الرجل . فخرج يستخبر عن اسمه ، فقال : أنا الحدي . فدخل الغلام ، فقال : الحلقي . وسمعها الجاحظ . فصاح به في الباب : رُدْنَا إلى الأول ؛ يريد أن قوله الجاحظ مكان الجاحظ أسهل عليه من الحلقي مكان الحدي ، فعرفه الرجل فأوصله واعتذر إليه . " (خليل، 2019م، صفحة 26)

ويستغل المعنى ويشد اللبس أكثر إذا " اجتمعت في الواحد لثغتان في حرفين ، كنجو لثغة شوشي صاحب عبد الله بن خالد الأموي ، فإنه كان يجعل اللام ياء والرأء ياء ، قال مرة مَوِيَّاي ويِيَّاي ، يريد مولاي ولي الري . " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، الصفحات 45-46)

القسم الثاني : وهو اللثغة التي لا سبيل إلى تصويرها، وإنما يرسمها اللسان ويتلقاها السمع ، وفيها قال الجاحظ " وأما اللثغة الخامسة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العدوي الشاعر فليس إلى تصويرها سبيل " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 45)، واللثغة هنا - حسب الجاحظ - لا يحدث فيها حلول صوت مكان آخر ومن هنا لا يترتب عنها لبس في المعنى، وإنما يحدث فيها شيء من انتهاك الخصوصية وتشويه مخرج الصوت، وضررها لا يعدو مضايقة السامع الذي ينفر من سماع صاحبها ويكره تبعاً لذلك الاستماع إليه وهذا ما يفسر لنا تجنب كثير من البلغاء والخطباء ما كان حجر عثرة يشين كلامهم ويصرف الأنظار عنهم .

ومن عيوب الكلام وآفات اللسان عن الجاحظ أيضا " اللَّجْلَاجُ والتَّمْتَامُ ... والفَأْفَاءُ وذو الجُبْسَةِ والحُكْلَةُ، والرُّتَّةُ وذو اللَّفْفِ والعجلة في سبيل الحصر في خطبته، والعِي في منازلة خصومه، كما أن سبيل المفحم عند الشعراء، والبكىء عند الخطباء، خلاف سبيل المسهب الثرثار، والخطل المكثار.

ثم اعلم أبقاك الله أن صاحب التَّشْدِيق والتَّفْعِير والتَّعْقِيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشُنعة التَّزْيُد أعذر من عي يتكلف الخطابة ، ومن حَصِر يتعرض لأهل الاعتياد والدُّربة . " (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، الصفحات 26-27)، و اللجلاج : الذي يتلجلج في الكلام . والتمتام الذي يردد لسانه حرفي التاء والميم . والفأفاء الذي يردد حرف الفاء في كلامه عيا وحصرًا . وكل هذا وما بعده من عيوب المنطق .

التشديق : تكلف البلاغة . والتفعير : تكلف الكلام على مذهب الأعراب ، والتعقيب : أن يخرج الكلام وقد جعل فمه كالقعب . (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 26)

وفي مجال صوتيات اللغة وموسيقى الكلام أيضا سلك طريقا خلص فيه إلى نتائج من صميم ما يعنى به علم اللغة الحديث كطلب الخفة، وحسن التأليف والسلاسة والجزالة ، فقد أورد البيت التالي :

" وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ يُكِدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَقِّظِ "

(الجاحظ أ.، كتاب الحيوان، 1424هـ - 2003م ، صفحة 07)

وفسره تفسيرا نقديا فقال : " إذا كان الشعرُ مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العَلَاتِ . وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة ... وكذلك حروفُ الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متَّفقة سلسة وليّنة المعاطف سهلة ؛ وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة، تشقُّ على اللسان وتكدّه. والأخرى تراها سهلة لينّة، ورَطْبَة مُتَوَاتِيَة سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأنها الكلمة بأسرها حرف واحد . (الجاحظ ع.، 1385هـ - 1965م، الصفحات 70-71) أولاد علة وأبناء العلات : هم الذين من أمهات شتى والأب واحد. (الجاحظ أ.، البيان والتبيين، دون تاريخ، صفحة 70)

هذا بعض مما ابدعه الجاحظ، وسيظل تراثه معيننا لا ينضب لمن أراد مناوشة التراث بغية استخراج ما غمره النسيان، وطواه تنكر الأحفاد الذين استهواهم الجديد الوافد، وما الوافد - في حقيقته - إلا تراث مغلف بمقولات الحداثة .

فهرس المصادر والمراجع

- ابن حجر العسقلاني. (1416هـ - 1995م). *تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير* (الإصدار دون طبعة، المجلد ج2). (أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، المحرر) القاهرة، مصر: مؤسسة قرطبة.
- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. (دون تاريخ). *المعجم الكبير* (الإصدار دون طبعة، المجلد ج19). (حققه وخرج أحاديثه : حمدي عبد المجيد، المحرر) القاهرة، مصر: مكتبة ابن تيمية.
- أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني ابن الفقيه. (1302). *مختصر كتاب البلدان*. ليدن المحروسة: مطبع بريل.
- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري. (1423هـ - 2002م). *صحيح البخاري* (الإصدار ط:01). دمشق - لبنان: دار ابن كثير.
- أبو عثمان بن بحر الجاحظ. (1411هـ - 1991م). *رسائل الجاحظ* (الإصدار ط:01، المجلد ج3). (عبد السلام هارون محمد، المحرر) بيروت، لبنان: دار الجيل.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (دون تاريخ). *البيان والتبيين*. القاهرة: دون دار نشر.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (1424هـ - 2003م). *كتاب الحيوان* (الإصدار ط:02). (محمد باسل عيون، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- الشريف المرتضى. (1373هـ 1954م). *أُمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد* (المجلد القسم الأول). القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- بلا شارل. (1406هـ - 1985م). *الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء* (الإصدار ط:01). (إبراهيم الكيلاني، المترجمون) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بناني محمد الصغير. (1983م). *النظريات اللسانية والبلاغية الأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"* (الإصدار دون طبعة). الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- سعيد حجازي سمير. (1421هـ - 2001م). *قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر* (الإصدار ط:01). القاهرة، مصر: دار الأفق العربية.
- عمرو بن بحر عمرو بن بحر الجاحظ. (1385هـ - 1965م). *كتاب الحيوان* (الإصدار ط:02، المجلد ج:03). (عبد السلام هارون محمد، المحرر) القاهرة، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير. (دون تاريخ). *النهاية في غريب الحديث والأثر* (المجلد). (أحمد بن محمد الخراط، المحرر) قطر، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- مردم خليل. (2019م). *الجاحظ - أئمة الأدب*. المملكة المتحدة، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي.
- ياقوت الحموي. (1993م). *معجم الأدباء* (الإصدار ط:01). (إحسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان.